ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 03 مارس 2017

الإسلام في مرآة استيهاماتنا

جون تولان

ترجمة: محمّد الحاج سالم

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الإسلام في مرآة استيهاماتنا

بقلم: **جون تولان (John Tolan)**

ترجمة: **محمّد الحاج سالم**

ملخّص

حين صرّح أحد أعضاء البرلمان الهولندي عن حزب الحريّة (أقصى اليمين) بأنّ محمّداً لو عاد اليوم، فستتمّ «**مطاردته كإرهابي**»، فإنّه لم يكن أوّل من استخدم صورة النبيّ في سياق نزاع أوروبّي محض، بل لعلّه آخر حلقة في سلسلة طويلة لتوظيف تلك الصورة. ولوضع هذه المجادلات حول النبيّ (ومن خلاله، حول الإسلام) ضمن منظور تاريخي، يدرس هذا المقال صورة النبيّ الكريم في جدالات أوروبّا منذ العصور الوسطى إلى القرن الثامن عشر. فقد صوّره الكتّاب المسيحيّون الأوروبيّون في العصور الوسطى في الغالب في صورة دجّال زنديق، قبل أن يُسهم الإصلاح البروتستانتي والحروب الدينيّة تعقيد تلك الصورة، حيث ستظلّ صورة النبيّ محمّد بارزة، إلاّ أنّ أهميّته ستغدو نسبيّة في سياق غدا فيه أعداء الداخل من أصحاب الهرطقات (لوثر، كالفن، إلخ) أسوأ بكثير من نبيّ الإسلام. أمّا في القرن الثامن عشر، فقد غدا النبيّ الكريم رهاناً في مجادلات الفلاسفة ضدّ سلطة الكنيسة، وانقلب عند البعض مصلحاً قاوم امتيازات رجال الدين المسيحيّين، وأقام ديناً نقيّاً دون وسطاء بين المؤمنين وربّهم. واليوم، كما الأمس، يكشف التلاعب بصورة النبيّ الكريم في تلك المجادلات بالأخصّ رهانات سياسيّة محض أوروبيّة.

*****

عند قراءة وسائل الإعلام الأوروبيّة، يذهب الظنّ إلى أنّ الإسلام لم يدخل قلب الجدل الأوروبّي إلاّ منذ عقود فحسب. فقضايا الحجاب أو اللحم الحلال في فرنسا، والمآذن في سويسرا، والزواج القسري في الدنمارك، كما العديد من نقاط الخلاف الأخرى، ليست تساؤلات حقيقيّة حول الإسلام في ذاته، بقدر ما هي استغلال للإسلام (أو للرّموز الملصقة به) في المناقشات التي تتعلّق رهاناتها بالسياسة الوطنيّة. ولكن الإسلام هو مثار جدل في أوروبّا منذ القرن الثاني عشر على الأقلّ، والرمز الذي غالبا ما يكون في قلب ذاك الجدل هو حياة النبيّ محمّد.

فهذا غيرت فيلدرز (Geert Wilders) عضو البرلمان الهولندي عن حزب الحريّة (أقصى اليمين)، يعمد من أجل تشويه الإسلام، إلى مهاجمة النبيّ محمّد ووصفه بالإرهابي والمستغلّ الجنسي للأطفال والمختلّ عقليّاً (Wilders, 2011). لكن فيلدرز ليس أوّل من يوظّف صورة محمّد بهذا الشكل في الخلافات الأوروبيّة، بل لعلّه آخرهم؛ ولوضع هذه المجادلات حول النبيّ (ومن خلاله، حول الإسلام) ضمن منظور تاريخي، نودّ تفحّص الدور الذي أُسند إليه في المجادلات الأوروبيّة منذ القرن الثاني عشر وحتى القرن الحادي والعشرين، وسنرى أنّ ما قيل وكُتب عن النبيّ هو في الغالب عدائي، ولكن ليس دائماً. وسنبدأ بالعصور الوسطى، وسنرى أنّ صورة محمّد تبدو مهدّدة للكتّاب المسيحيّين الأوروبيّين، خاصّة وهي تُمثّل لهم ديناً وحضارة منافسين، ظافرين وجذابيّن في نفس الوقت. لكن تغيّر الظروف أدّى إلى تغيّر الدور الموكول للنبيّ تغيّراً تامّا، إذ سيتمّ في أواخر العصور الوسطى استدعاؤه كشاهد على صحّة عقيدة «الحَبَل بلا دنس».

فخلال الحروب الدينيّة، غدا النبيّ معياراً على سلّم الخطأ، وغدا لوثر أو البابا (وفقاً لوجهة نظر المتكلّم) أسوأ بكثير من محمّد. لقد تمّ استغلال صورة النبيّ في الجدل حول سلطة الكنيسة الكاثوليكيّة خلال القرن الثامن عشر من أجل سحق المخالف السيّئ، إمّا بإظهار النبيّ متعصبّاً عنيفاً (لضرب رجال الدين جملة)، أو بإظهاره على العكس مصلحاً مقاوماً للخرافات وسلطة رجال الدين (Tolan, 2010).

ولنبدأ بما سُميّ انطلاقاً من القرن الثالث عشر بالحملة الصليبيّة حين كانت الخلافات تدور حول الحرب المقدّسة (Flori, 2006). ففي الكنيسة الأولى، كان الحاجّ الذي يذهب إلى القدس (أو روما أو أيّ مكان آخر)، وغالباً ما يكون ذلك بغرض التوبة، يقوم بذلك بتواضع، وكان لذلك مسالماً بالضّرورة. ولكن الحروب الصليبيّة أضحت في مرتبة الحجّ «المسلّح»، حتّى أنّ المؤرّخين غالباً ما أسندوا لقب الشهداء على المحاربين المسيحيّين الذين سقطوا في تلك الحملات. ومن أجل تبرير تلك الحروب وتمجيدها، كان لا بدّ من تشويه العدوّ «السرقني» (sarrasin) الذي صُوّر أحياناً كافراً وثنيّاً، ومهرطقاً أحياناً أخرى.

في ملحمة رولان (Chanson de Roland) (نهاية القرن الحادي عشر أو بداية الثاني عشر)، نجد «السراقنة» يعبدون أوثان آلهتهم الثلاثة: أبّولين (Apollin) وتيرفاغان (Tervagan) ومحمّد (Mahomet) (Tolan، 2003؛ Akbari، 2009). وبعد هزيمة ساحقة منوا بها، كسروا تمثال محمّد؛ وفي نهاية الملحمة، تدخل قوّات الملك شارلمان (Charlemagne) المنتصرة مدينة سرقسطة وتكسر بالمطارق ما وجدته من أصنام في «البيعات» (sinagoges) و«المحمّديات» (mahumeries). ولا يقتصر الأمر على ملحمة رولان، فقد قام العديد من المؤرّخين والشعراء وأهل الجدل بتصوير عبادة «السراقنة» على أنّها شركيّة ووثنيّة وإلهها الرئيس هو محمّد (Mahomet) أو ماهون (Mahon). ولم ينجُ من هذا الأمر حتّى مؤرخّو الحملة الصليبيّة الأولى (1096-1099 م) أو مؤلّفو ملحمة أنطاكيّة (Chanson d'Antioche)، الذين خلطوا أخبار المعارك الحقيقيّة التي وقعت خلال الحملة الصليبيّة الأولى بمشاهد من محض الخيال، ولا سيّما ما تعلّق منها بحياة الأعداء السراقنة. وقد كانت هذه الصورة بالطّبع نتيجة جهل كبير (أو عدم اهتمام) بما يتعلّق بالإسلام. فقد تخيّل الكتّاب (ومعظمهم من رجال الدين) الغارقين في الثقافة اللاتينيّة (بما في ذلك الشعر القديم)، أنّ عبادة «الكفّار» السراقنة على شاكلة عبادات العصر الوثني القديم. وهذا ما يبدو لنا إلى حدّ ما بالطّبع من باب سخرية الأقدار، إذ إنّ المسيحيّين هم من كانوا يُغرقون كنائسهم بتماثيل القدّيسين والصلبان، إلخ، إلى درجة أن اتّهمهم المسلمون (واليهود) بالوثنيّة.

وبالطّبع، فإنّ أحدنا يدرك بمجرّد أن يعرف القليل عن الإسلام، أنّه يمكن وصف «السراقنة» بأيّ وصف، عدا كونهم وثنيّين. ومن هنا تطوّرت صورة هزليّة أخرى، أقلّ وقاحة ولكنّها لا تقلّ عداءً، أضحى فيها الإسلام هرطقة (أي نسخة منحرفة وغير شرعيّة من المسيحيّة)، وأضحى مؤسّسها محمّد مهرطقاً. وقد انتشرت هذه الفكرة بين المسيحيّين الشرقيّين منذ القرن الثامن للميلاد، وفي إسبانيا منذ القرن التاسع، ثمّ في أماكن أخرى من أوروبّا منذ القرن الثاني عشر. وهذا القرن الثاني عشر، هو بالذّات من سيشهد انتشار أسطورة كالحة حول النبيّ في العديد من النصوص باللغة اللاتينيّة (وانطلاقاً من القرن الثالث عشر بالفرنسيّة) (Tolan، 2006؛ Tolan، 2003، الفصل 6). تقول الحكاية إنّ محمّدا كان تاجراً شابّاً تلقّى تعليمه على يد راهب مهرطق، وأنّه ادّعى النبوّة بهدف الاستيلاء على السلطة، وأنّه درّب حمامة على التقاط الحبوب من أذنه، ثمّ يقول للجمهور المذهول إنّ رئيس الملائكة جبريل قد جاءه بالوحي. وتقول نفس الحكاية إنّ محمّدا أعلن أنّ الله سيرسل كتابا مقدّساً جديداً عن طريق وسيط غير متوقّع، ثمّ جاء ثور سبق أن درّبه محمّد مسبقاً، وهو يحمل بين قرونه الكتاب الذي سبق أن كتبه محمّد بنفسه. وحسب نفس الحكاية، فإنّ الشريعة الجديدة تسمح بتعدّد الزوجات وسفاح القربى، وتعد بجنّة للفجور الجنسي، وهو ما جعله ينجح في إثارة الحشود. وحسب هذه الرواية، فقد وُضع محمّد عند وفاته في تابوت حديدي في مكّة داخل معبد ثُبّت في سقفه مغناطيس، حيث كان التابوت قائماً في الهواء، وهو ما يعتبره الحجّاج السراقنة دليلاً على أنّه نبيّ عظيم يحبّه الله. ونحن نجد صوراً لمحمّد، مستندة إلى هذه النصوص، في مختلف المخطوطات في

العصور الوسطى: لقد كانت بحقّ رسوماً دنماركيّة قبل الرسوم الدنماركيّة (1*م). وتجمع اللوحة الزخرفيّة التي نوردها أدناه، وهي من القرن الخامس عشر، عدداً من هذه الأقاصيص (الصورة رقم 1) التي تُظهر محمّداً في صورة المشعوذ والدجّال.

1. النبيّ محمّد كما صوّره في القرن الخامس عشر فلورنتين بوكاشيو (Florentin Boccace) في كتابه «نماذج لمشاهير الرجال» (De casibus virorum illustrium) (الطبعة الفرنسيّة).

وعلينا أن لا ننسى السياق، فقد كان العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر أكثر قوّة وتحضّراً وثراءً من العالم المسيحي اللاتيني، وكان يجب على رجال الدين اللاتين تفسير النجاحات الواضحة لهذه الحضارة ولهذا الدين المنافس، وفي نفس الوقت تأكيد تفوّق الدين المسيحي في نظر قرّائهم. وهنا نرى غموض النظرة إلى الإسلام ونبيّه: إنّهما يفتنان بقدر ما يصدّان.

وإنّه لمن غير المستغرب، أن نرى هذه الصور الساخرة من النبيّ محمّد في سياق المواجهة الإيديولوجيّة والعسكريّة مع الإسلام. ولكنّا نجد نبيّ الإسلام في قلب جدل آخر غير متوقّع بالضرورة: إنّه الجدل الذي

1*م - الرسوم الدنماركيّة هي مجموعة رسوم ساخرة من النبيّ نشرتها صحيفة يولاندس بوستن الدنماركيّة في 30 سبتمبر 2005 وأعادت صحف أوروبيّة أخرى نشرها في ما اعتبر إساءة بالغة للنبيّ الكريم قُوبلت بموجة عارمة من التنديد والغضب على الصعيدين الشعبي والسياسي في العالم الإسلامي [المترجم].

دار، خلال قسم كبير من العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر، حول عقيدة الحبل بلا دَنَسٍ؛ فقد كانت هذه العقيدة، التي لم تُعتمد رسميّاً من قبل الكنيسة الكاثوليكيّة إلاّ في العام 1854، مدار جدال عنيف في العصر الوسيط والقرنين السادس عشر والسابع عشر، وهي تنصّ على أنّ مريم العذراء وُلدت دون دنس الخطيئة الأصليّة: فهي الأولى (والوحيدة، باستثناء ابنها) التي لم تُصبها اللعنة التي تصيب البشر منذ طرد الله آدم وحوّاء من الجنّة. وليس هدفنا هنا الخوض في تعقيدات هذا النقاش الصعب عموماً، بل الإشارة إلى دور الشاهد المُسنَد لنبيّ الإسلام انتصاراً لهذه العقيدة (Gay-Canton، 2010).

يرد في صحيح البخاري (القرن التاسع الميلادي) أنّ النبيّ قال: «**ما من بني آدم مولود إلاّ يمسّه الشيطان حين يولد** [...] **غير مريم وابنها**» (Houdas & Marçais، 1977، ص 278) ([2*]م). وهذا الحديث من المأثورات التي تُظهر المكانة الخاصّة لعيسى وأمّه في العقيدة الإسلاميّة. لكن في أيّ سياق، وضمن أيّ «جدل» يمكننا وضع كتابة هذا الحديث في خراسان العباسيّة؟ إنّنا نرجّح أنّه كان يساعد على تأكيد الانسجام الذي ينبغي أن يقوم بين من يحترمون مريم وابنها، وأنّه يسهم في تأكيد كونيّة الرسالة التوحيديّة التي جاء بها النبيّان عيسى ومحمّد.

ولكن مهما كانت الحال، فإنّ هذا الحديث النبوي سيعود إلى الظهور مجدّداً في سياق مختلف تماماً بعد خمسة قرون، حين سيُدرج القسّ الفرنسيسكاني ماركار فون ليندا (Marquard von Lindau) في الفصل المخصّص لعقيدة «**الحَبَل بلا دنس**» ترجمة لاتينيّة للحديث المذكور، إلى جانب آيات قرآنيّة تُثني على مريم. واعتباراً من تلك اللحظة، سيُدرج محمّد ضمن أنصار تلك العقيدة، وسيشير إليه أنصارها بوصفه داعماً لها (وهم يخلطون، في معظم الأحيان، بين الحديث والقرآن) (Gay-Canton، 2010). وبطبيعة الحال، فإنّ القرآن والحديث لا يُعبّران عن عقيدة الحبل بلا دنس، إذ هي مرتبطة بفكرة الخطيئة الأصليّة الغريبة تماماً عن الإسلام. ولكن هذا غير مهمّ، وما يهمّنا هنا هو الدور المنوط بالنبيّ محمّد في نقاش هو محض أوروبي.

2*م - توضيح من المترجم: النصّ الكامل للحديث: حدّثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: حدّثني سعيد بن المسيّب قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا»، **ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (آل عمران، 36)**. انظر: **البخاري (أبو عبد الله، محمّد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، 1987، ج 4، ص 164.**

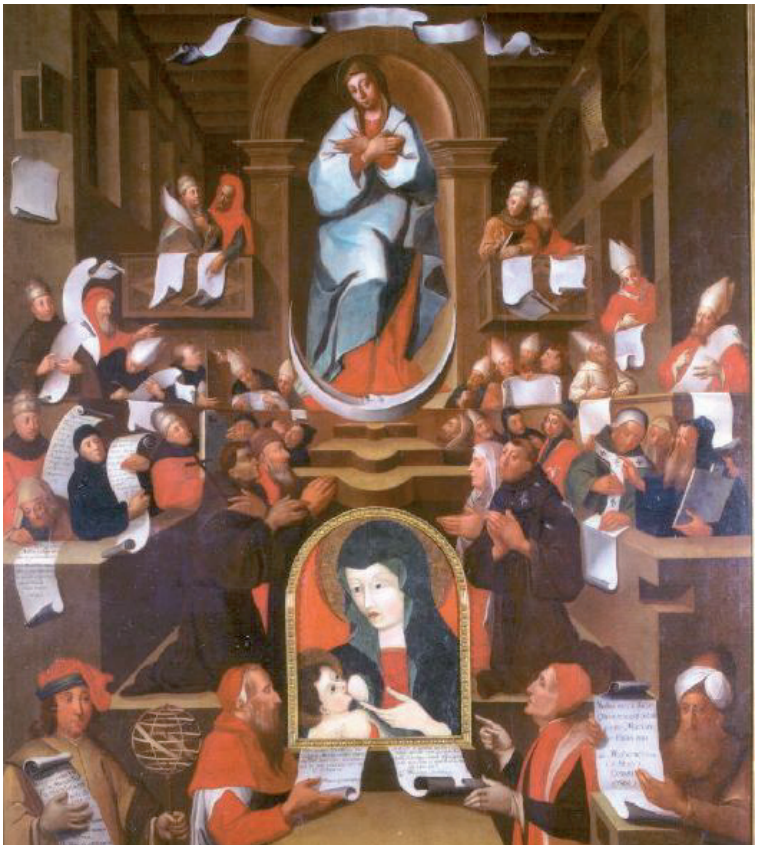

2. لوحة Disputa لميشيل لوبوسينيولي (Michele Luposignoli) (1727) وفق نموذج لنيكولا براليتش (Nikola Bralič) (1518) في كنيسة القديسة مريم البليوديّة (Santa Maria della Palude) في مدينة سبليت (Split).

لكن الأكثر إدهاشاً في هذه القصّة المذهلة قد يكون تصوير النبيّ محمّد من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر في العديد من لوحات الزخرفة الخلفيّة للمذابح داخل الكنائس (retables)، وهي لوحات توضّح الجدل حول عقيدة الحبل بلا دنس. وتُظهر اللوحة التي رسمها ميشيل لوبوزنيولي (Michele Luposignoli) (الصورة رقم 2) في عام 1727، وهي على ما يبدو منقولة عن لوحة لنيكولا برالیتش (Nikola Bralič) تعود إلى عام 1518، العذراء داخل فصل دراسي محاطة بعدد من معلّمي الكنيسة يمسكون أوراقاً تحوي كتاباتهم المنافحة عن هذه العقيدة. ونرى في أسفل اليمين، محمّداً، وهو يمسك لفافة مكتوب عليها: «**ما من بني آدم إلاّ يمسّه الشيطان، غير مريم وابنها: محمّد في القرآن**». فحتّى محمّد ولوثر (الشخص الثاني أسفل الصورة) يدعمان عقيدة الحبل بلا دنس. إنّهما مبعدان بلا شكّ إلى الجزء السفلي من اللوحة، ولكنّهما مع ذلك شاهدان على صحّة العقيدة، ومثار دهشتنا الكبرى هو أنّ هذه اللوحة تُزيّن مذبح كنيسة !.

وفي نفس تلك الفترة، كان الجدل الكبير الذي مزّق أوروبّـا بالطبع هو الذي دار بين الكاثوليك والبروتستانت. وهنا، لعب الإسلام ونبيّه دور المعيار في السلّم النسبي للخطأ. ففي نظر كثير من أصحاب الجدل البروتستانت، كان الكاثوليك أسوأ بكثير من المسلمين. ووفقاً للوثر، فإنّ «**شيطان البابا هو أكبر من شيطان الأتراك**». وفي مواضع أخرى، يصف لوثر أبّهة عيد المسلمين، ومثابرتهم على الصوم والصلاة، ليخلص إلى أنّهم كاثوليك بشكل أفضل من البابا (Francisco، 2007).

لقد كانت لعبة جيّدة، إذا جاز التعبير، ولن يمتنع الكاثوليك عن استخدام نفس الأداة لينبذوا جملة وتفصيلاً كلّ الهراطقة الكبار: محمّد، ولوثر، وكالفين.

3. محمد الدجّال وكالفين المضلّل في الجحيم، في تقويم 1 يناير 1687

في تقويم (almanach) نُشر في باريس في عام 1687، نرى كالفين ومحمّد في الجحيم. ونرى المسلمين والكالفينيّين الذين وعدهم قائداهما الكبيرين بالجنّة، ينتقمون لخيبة أملهم فيهما. ولنلاحظ المسلم الذي يدوس «**قرآن محمّد**» والكالفيني الذي يُمسك لحية قائده، وهو يلوّح بـ«**شرائع كالفين**»، وذلك تحت أنظار شيطان صغير مبتهج بالمشهد (Carnoy-Torab، 2006، ص 440- 441).

ولننتقل إلى جدل أوروبي آخر كبير، وهو الجدل الذي قام بين فلاسفة القرن الثامن عشر والربوبيّين من جهة، ورجال الدين من جهة أخرى. ولنر كيف أمكن لصورة النبيّ أن تُوظّف في هجمات الفلاسفة ضدّ الدين (وخاصّة ضدّ الكنيسة الكاثوليكيّة). ولنتناول أوّلاً مثال رسالة الدجّالين الثلاثة (1719) [1].

فوفقاً لمؤلّف الرسالة المجهول، فإنّ الدين كان دائماً أداة في يد النخب للتلاعب بالحشود، وذلك منذ كهنة العصور القديمة الوثنيّة، ولكن أسوأ المشعوذين هم الدجّالون الثلاثة: موسى وعيسى ومحمّد. فقد دبّر ثلاثتهم معجزات كاذبة ووحياً كاذباً كي يبنوا لهم مجداً ويخدعوا بذلك أتباعهم. فموسى كان ساحراً تعلّم السحر في مصر، وكان مستبدّاً ودجّالاً. ولم يكن عيسى أفضل منه أبداً، فقد نجح في إيهام جماعة من البلهاء بأنّ والدته كانت عذراء، وأنّ والده هو الروح القدس. ولا جديد في صورة محمّد، فهي نفسها تلك المكرورة عند كتّاب القرون الوسطى. ولعلّ الفرق الوحيد هو معاملة المؤلف المجهول لموسى وعيسى بنفس الطريقة التي عامل بها نبيّ الإسلام، فقد كان يهدف إلى نبذ الثلاثة جملة وتفصيلاً، وذلك بأن أسند إلى موسى وعيسى دور الدجّال والمحتال الذي كان يُنسب غالباً إلى محمّد.

إلاّ أنّه أمكن في خضمّ حرب الأفكار هذه، أن يُوجد خيار استراتيجي معاكس، وهو مدح الإسلام ونبيّه من أجل انتقاد أشدّ للكنيسة. فقد كتب هنري، كونت بولانفيلييه (Boulainvilliers) كتاب حياة محمّد (نُشر عام 1730 بعد وفاته)، وكان يرى أنّ محمّداً رسول يُوحى إليه بعثه الله ليُخزي مسيحيّي الشرق المشاكسين، ويخلّص الشرق من استبداد الرومان والفُرس، وينشر وحدانية الله من الهند إلى إسبانيا. لقد اعتمد محمّد، كما يقول بولانفيلييه، أفضل ما في المسيحيّة، ولم يرفض منها سوى مساوئها؛ أي عبادة القدّيسين والتماثيل، وسلطة الكهنة والرهبان الجهلة. ويتصدّى بولانفيلييه للكتّاب المسيحيّين الذين يقومون، من خلال كراهيّتهم للدّين المنافس، بإهانة النبيّ، فيقول:

«**يجب أن نُدرك أنّ هذا الانتقام يُردي بحججنا إلى مهاوي الإسفاف؛ لأنّه إذا كان مجد هذه الشخصيّة قد قام دون موارد طبيعيّة، فإنّ نجاحه لا يمكن إلاّ أن يكون من الله الذي يتّهمه الكفّار بأنّه ضلّل نصف العالم، وأنّه دمّر بعنف وحيه بالذّات**» (Boulainvilliers، 1730، ص 179).

والكفّار الذي يقصدهم بولانفيليه ليسوا المسلمين، بل هم المسيحيّون الذين يرفضون الاعتراف بأنّ محمّداً كان يتلقّى الوحي من الله الذي كان يقود خطاه. وقد قُدّم هذا النصّ أحياناً كشهادة ساطعة عن روح التسامح التي كانت تسود عصر الأنوار.

ولكن هذه الصورة المادحة للنبيّ محمّد ربّما كانت بالدرجة الأولى، انتقاداً ضمنيّاً للكنيسة الكاثوليكيّة، فهي تُقدّم محمّداً ربوبيّاً مستنيراً يحارب الخرافات وانحراف سلطة رجال الدين. وهذا ما يجعل استخدام محمّد مفيداً في هذا الجدل، مرّة أخرى، كمعيار للمقارنة: فالصورة الإيجابيّة الواضحة للنبيّ تسمح لبولانفيليه بانتقاد حالة البؤس التي كانت عليها الكنيسة.

ولكن عصر التنوير بالتأكيد لم يخلُ أيضاً من الاستراتيجية المعاكسة، أي التهجّم على محمّد كممثّل للتعصّب. وهذا ما اختاره فولتير في مسرحيّته **محمّد أو التعصّب** ((Mahomet ou le Fanatisme 1742)). فمحمّد في هذه المسرحيّة دجّال مخادع يستخدم الدسائس ولا يتورّع عن الكذب والقتل للحصول على ما يريد: السلطة، وامرأة شابّة وقع في حبّها، ولقب النبيّ. ولكن المستهدف أساساً من خلال صورة النبيّ المتعصّب والمتلاعب، هو الكنيسة الكاثوليكيّة، وهذا في الواقع ما جعل المسرحيّة تُثير ردود فعل قويّة (Carnoy-Torab، 2006، ص 468-471). لكنّ فولتير سيرسم صورة مختلفة تماماً للنبيّ في رسالته عن الأخلاق (Essai sur les mœurs et l’esprit des nations)، وهو عرض تاريخي كبير ظهرت فيه صورة النبيّ محمّد أشبه بالصورة التي رسمها له بولانفيليه، فهو رجل حكيم، ومشرّع عظيم، وزعيم شعب فخور وشجاع. فهل غيّر فولتير أفكاره خلال الأربع عشرة سنة الفاصلة بين النصّين، وغدا أكثر تسامحاً تجاه الإسلام ونبيّه؟ قد يكون ذلك. ولكنّ الحقّ يقتضي القول بأنّه تبنّى استراتيجيّة مناسبة لكتابة تاريخ تتناقض فيه صورة الإسلام القروسطي كدين متسامح ومستنير، وكحضارة مثقّفة ومتطوّرة، مع صورة أوروبّا الصليبيّة المتعصّبة والجاهلة والهمجيّة. محمّد المتعصّب أم محمّد المشرّع؟ إنّ فولتير مستعدّ لتبنّي هذه الصورة أو تلك من أجل سحق عدوّه.

على أنّ محمّداً المشرّع هو ما نجده عند عمّانويل باستوري (Emmanuel Pastoret)، الذي نشر في عام 1787 كتابه **زرادشت وكونفوشيوس ومحمّد** (Zoroastre, Confucius et Mahomet)، ويروي فيه حياة هؤلاء «**الرجال العظام**» الثلاثة بوصفهم «**أفضل المشرّعين في العالم**»، ويقارن بين أدوارهم كمصلحين ومشرّعين (Pastoret، 1787). فالنبيّ في القرآن الكريم، كما يوضّح باستوري، يدعو إلى «**أسمى حقائق العبادة والأخلاق**» (ص 234)؛ والقرآن يتحدّث عن وحدانية الله في «**إيجاز مذهل**» (ص 236)؛ وهو ما يجعل التهجّمات ضدّ أخلاق النبيّ دون أساس، بل العكس هو الصحيح،

فشريعته تحضّ على العفّة والكرم والرحمة، بما لا يدعو إلى الشكّ في أنّ «**مشرّع جزيرة العرب**» كان «**رجلاً عظيماً**» (ص 1).

وقد ترسّخت صورة محمّد «**الرجل العظيم**» في الأذهان إلى درجة أن اتّخذه «رجل عظيم» آخر، وهو نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte)، مثالاً. وقد زعم خلال حملته على مصر الدفاع عن الإسلام والعرب ضد عدوّيه، وهما البابويّة و«المماليك» (أي العثمانيّين)، ووصل به الأمر إلى أن يُعلن في ديسمبر 1798: «**لا تستطيع أيّة قوّة بشريّة أن تفعل شيئاً ضدّي. فقدومي من الغرب إلى ضفاف النيل مذكور في عدّة آيات من القرآن، وسيأتي يوم يقتنع فيه الجميع بذلك**» (Napoléon Ier، 1998، ص 167).

هل كان ذلك مجرّد تصريح ساخر من رجل يبحث عن حجّة لتبرير سلطته؟ هذا ما لا شكّ فيه. ففي العام الموالي، قبل مغادرته مصر، حذّر بونابرت مساعديه بقوله: «**يجب إقناع المسلمين بأنّنا نحبّ القرآن ونُجلّ النبيّ؛ ويكفي خطأ واحد كي يتهدّم ما بنيناه طوال سنوات**» (ص 275).

ولكن بعد سنوات، عندما كتب مذكّراته في المنفى في جزيرة سانت هيلانة، رسم بونابرت بتدقيق صورة النبي كمشرّع عظيم وفاتح، فكتب يقول:

«**كان محمّد أميراً؛ نجح في حشد قومه من حوله. وفي غضون بضع سنوات، غزا المسلمون نصف العالم، وفي ظرف خمسة عشر عاماً حرّروا أرواحاً من الآلهة الكاذبة وأطاحوا أصناماً وأزالوا معابد وثنيّة، أكثر ممّا فعل أتباع موسى وعيسى طوال خمسة عشر قرناً. لقد كان محمّد رجلاً عظيماً**» (ص 140-141).

وكجنرال عظيم وزعيم كاريزمي، نجح محمّد حيث فشل نابليون للأسف، وحكم على نفسه بقضاء بقيّة أيّامه حبيس جزيرة في جنوب المحيط الأطلسي. صحيح، كما يعترف بونابرت، أنّه قال لعساكره إنّ عذارى جميلات ينتظرنهم في الجنّة، ولكنّ ذلك كان من أجل شحذ هممهم. لقد كان محقّاً في ذلك، ونجاحاته العسكريّة تشهد له.

بل إنّ الإمبراطور السابق كان على استعداد للدّفاع عن تعدّد الزوجات، باعتباره أفضل وسيلة لمكافحة العنصريّة (بما أنّ أولاداً من نساء ذوات أصول وألوان مختلفة سيكبرون كإخوة تحت سقف واحد)، وقد شجّع على ذلك من أجل القضاء على العنصريّة في المستعمرات الفرنسيّة وتعزيز حرّية السود (ص 153).

4. محمّد بين شارلمان وجستنيان. إفريز من عمل أدولف وينمان (Adolph Weinman) موجود بالمحكمة العليا في واشنطن (1935).

وقد ترك لنا أدولف وينمان (Adolf A. Weinman)، النحّات الأمريكي المولود في ألمانيا، تعبيراً بصريّاً لمحمّد المشرّع في الإفريز الذي نحته عام 1935 والموجود في قاعة الجلسات بالمحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكيّة. فالنبيّ موجود ضمن الثمانية عشر مشرّع المحتفى بهم، بدءاً من حمورابي ووصولاً إلى جون مارشال (John Marshall)، قاضي المحكمة العليا، مروراً بموسى وكونفوشيوس ونابليون. وقد صوّر محمّداً، وهو يمسك مصحفاً مفتوحاً في يده اليسرى والسيف في يُمناه (كما هو حال عدد من المشرّعين المجسّدين في الإفريز).

ويمكننا أن نُعدّد أمثلة كثيرة من القرنين التاسع عشر والعشرين، صوّرت محمّداً مشرّعاً كبيراً ورجل دولة. ولئن كان ذلك وسيلة لتكريم الرجل وأتباعه، إلاّ أنّه كان أيضاً في نفس الوقت من أجل تفادي قضيّة مركزيّة، ألا وهي الدور الديني للنبيّ. لكن الأمر في القرن العشرين لم يقف عند هذا الحدّ.

ففي القرن العشرين، ظهرت صورة النبيّ محمّد بالفعل خلال جدل آخر شقّ الكنيسة الكاثوليكيّة، وهو الجدل بشأن عالميّة الرسالة المسيحيّة والموقف الذي يجب اتّخاذه تجاه أتباع الديانات الأخرى. ومع أنّ القضايا المطروحة كانت مختلفة، إلاّ أنّ القضيّة المركزيّة كانت تتعلّق بالدور المخلّص للدّين المسيحي: هل سيدخل المسيحيّون الكاثوليك وحدهم الجنّة، أم يمكن أن نتصوّر إمكانيّة خلاص الآخرين؟ لم يكن هذا الجدل بالتأكيد جديداً: فمنذ القرن السادس عشر، أكّد مسيحيّون من مختلف المذاهب أنّ الصالحين من المسلمين واليهود يمكنهم دخول الجنّة إذا ما التزموا شرائعهم الخاصّة (Schwartz، 2008؛ Tolan، 2012). وقد برزت هذه المسألة بقوّة خصوصاً بعد المحرقة اليهوديّة، فهي التي دعت الكنيسة الكاثوليكيّة إلى التساؤل حول الموقف الذي يجب اتّخاذه تجاه الديانات الأخرى. ففي 28 أكتوبر 1965، أعلن البابا بولس

السادس (Paul VI) «**إعلان عصرنا**» (Nostra aetate) بشأن علاقة الكنيسة مع الأديان غير المسيحيّة (Vatican، 1965). وإذا ما كان البابا قد خصّص أطول فقرة من البيان لليهوديّة، فإنّه أشار أيضاً إلى الهندوسيّة والبوذيّة، وخصّص فقرة للإسلام أكّد فيها أنّ «**الكنيسة تنظر ايضاً بعين التقدير للمسلمين**»، واستعرض القواسم المشتركة بين الديانتين، سواء في العقيدة أو الممارسة أو الأخلاق. لكن لا كلمة واحدة عن النبيّ محمّد، بل بالأحرى صمت مطبق ومرتبك.

ومع ذلك، فإنّه كان موضوعاً لا يمكن تجنّبه إذا ما كنّا نرغب، كما ذكر البابا، في بدء حوار محترم وهادئ مع المسلمين.

لقد كان لويس ماسينيون (1883-1962 Louis Massignon)، الأستاذ في معهد فرنسا (Collège de France)، مستعرباً لامعاً وكاثوليكيّاً متديّناً. وكان في الوقت نفسه مفتوناً بالإسلام ومحترماً له، وخاصّة للتيّار الصوفي فيه. وفي نظر ماسينيون، كان محمّد قائداً صادقاً، موحى إليه من الله، بشّر بالحقّ وهدى شعبه إلى عبادة الله الواحد الصمد. ولكنّه وإن لم يكن نبيّاً كاذباً، فهو «**نبيّ سلبي**» لم يتوصّل إلى الحقيقة المطلقة للمسيحيّة (Waardenburg، 1969، ص 141-148).

وقد ذهب كتّاب كاثوليك آخرون أبعد من ذلك، وأشاروا إلى أنّ محمّدا نبيّ وعلى المسيحيّين الاعتراف به نبيّاً. فهذا مونتغمري واط (Montgomery Watt)، وقد كتب سيرة نبويّة علميّة مهمّة، يقول إنّ المسيحيّين الذين يرغبون في إقامة حوار مع المسلمين «**يجب أن يرفضوا تشويه الصورة القروسطيّة للإسلام، وأن يظهروا تقديراً إيجابيّا تجاه قيمه. وهذا يعني قبول محمّد كزعيم ديني تجلّى من خلاله عمل الله، وهذا ما يجعله بمعنى من المعاني نبيّاً**». (Watt، 1991، ص 148).

إلاّ أنّ اللاهوتي الكاثوليكي السويسري هانز كونغ (Hans Küng) قد يكون بالتأكيد أكثر من طوّر حجّة لاهوتيّة مفصّلة لصالح اعتراف الكنيسة بنبوّة محمّد؛ فهو يُلاحظ أوّلاً أنّ عقيدة الكنيسة بشأن خلاص غير المسيحيّين قد تطوّر بالفعل منذ قرون، إذ أعلن مجلس فلورنسا (عام 1442 م) أن لا خلاص لأيّ بشر خارج الكنيسة الكاثوليكيّة، وأنّ الكفّار مصيرهم جهنّم. ولكن المجمع الفاتيكاني الثاني سيُعلن في عام 1962 أنّ «**خطة الخلاص تشمل أيضاً أولئك الذين يعترفون بالخالق، وفي المقام الأوّل المسلمين الذين يعتنقون الإيمان الإبراهيمي، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمان الحاكم بين البشر يوم القيامة**» (Vatican، 1962). وعليه، فإنّ من هم خارج الكنيسة، مسلمين وغيرهم، يمكنهم الحصول على الخلاص الأبدي. إلاّ أنّ كونغ يأسف ألاّ يذكر الفاتيكان الثاني، رغم تعبيره عن احترام الإسلام والمسلمين، اسم محمّد. وهو يقارن نبيّ الإسلام بأنبياء العهد القديم: فمحمّد على غرار أولئك الأنبياء لا يستمدّ سلطته من وظيفة دولانيّة، بل

من علاقة خاصّة بالله، وقد قام على غرار الأنبياء العبرانيّين، بتبليغ رسالة الله إلى أفراد شعبه وطلب منهم التسليم بالإرادة الإلهيّة. وباختصار، فقد تصرّف مثل الأنبياء السابقين. ويختم كونغ بقوله:

«في الحقيقة، كان محمّد وما يزال يمثّل بالنّسبة للعالم العربي، ولكثيرين آخرين، المصلح الديني، والمشرّع، والزعيم؛ أي النبيّ باختصار. وبالأساس، فإنّ محمّداً، الذي لم يدع أبداً سوى كونه بشراً، يمثّل في نظر أتباعه أكثر ممّا يمثّله النبيّ في نظرنا: إنّه نموذج لطريقة الحياة التي يسعى إليها الإسلام. وإذا ما كانت الكنيسة الكاثوليكيّة، وفقاً للفاتيكان الثاني (الإعلان الخاصّ بالأديان غير المسيحيّة) تنظر إلى المسلمين بعين التقدير، فإنّ على نفس الكنيسة احترام من كان اسمه غائباً على نحو فجّ عن ذلك الإعلان، خاصّة وأنّه الوحيد الذي هدى المسلمين إلى الإيمان بالله الواحد الذي خاطب البشريّة من خلاله: إنّه محمّد النبيّ» (Küng، 1992).

لقد أردنا أن نبيّن من خلال هذا العرض المختصر، كيف تمّ استغلال صورة محمّد في المجادلات الأوروبيّة، وأمكننا أن نرى أنّ عمل المؤرّخ (أو عالم الاجتماع في ما يخصّ الفترة المعاصرة) لا يتعلّق بالانتصار لمن قد يبدو «متسامحاً» وتوبيخ المتعصّبين، بل تفكيك الصور من أجل فضح الاستراتيجيّات البلاغيّة وفهم الرهانات. فالإسلام، من وجهة نظر أوروبّا، يبدو في الغالب مثيل الأخ العدوّ: فهو الجار والمنافس الذي يستمدّ قوّته من المعين العميق والمشترك للعصور القديمة اليونانيّة الرومانيّة الفارسيّة وللتوحيد اليهودي. وحين يفكّر المسيحيّون الأوروبيّون في الإسلام كدين، فإنّهم غالباً ما يتوقّفون عند صورة النبيّ، جاعلين منه إمّا تجسيداً للخطأ، أو رمزاً للتّسامح والحرّية الدينيّة. فالخطاب الأوروبّي حول محمّد هو مرآة ماسخة: فهي تُخبرنا عن آمال الأوروبيّين ومخاوفهم أكثر ممّا تُخبرنا عن هذه الشخصيّة المتفلّتة لجزيرة العرب في القرن السابع الميلادي.

هوامش الكاتب

- صدرت الطبعة الأولى تحت عنوان: **حياة السيّد بنديكتوس سبينوزا وفكره**، أمستردام، 1719.

La vie et l'esprit de Mr. Benoit de Spinosa, Amsterdam: Charles le Vier, 1719.

ثمّ أعيد نشرها في وقت لاحق في العام 1721 تحت عنوان **رسالة الدجّالين الثلاثة** (***Le traité des trois imposteurs***)، كما أعيد نشرها عدّة مرات خلال القرن الثامن عشر.

وحول الجدل في انكلترا بشأن الطبعة المنشورة في العام 1777، انظر:

Anderson (Abraham), ***The Treatise of the Three Imposters and the Problem of the Enlightenment***, Lanham: Rowman & Littlefield, 1997.

وحول هذا النصّ، انظر:

Berti (Silvia), Charles-Daubert (Françoise) & Popkin (Richard), eds., ***Heterodoxy, Spinozism, and free thought in early-eighteenth-century Europe: studies on the "Traité des trois imposteurs"***, Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1996.

المقال الأصلي

Tolan (John), "Islam in the mirror of our phantasms", in Nilüfer Göle (ed), ***Islam and Public Controversy in Europe***, London & New York: Routledge, 2016, (p. 113122-).

الأعمال المذكورة في المقال

- Akbari (Suzanne Conklin), ***Idols in the East: European Representations of Islam and the Orient (1100-1450)***, Ithaca: Cornell University Press, 2009.
- Boulainvilliers (Henri de), ***La vie de Mahomed***, Amsterdam: P. Humbert, 1730.
- Carnoy-Torab (Dominique), « Regards sur l'islam, de l'âge classique aux Lumières», in ***L'Histoire de l'islam et des musulmans en France***, édité par Mohammed Arkoun, p. 436-474, Paris: Albin-Michel, 2006.
- Flori (Jean), «Les croisades et leur signification idéologique», in ***L'Histoire de l'islam et des musulmans en France***, édité par Mohammed Arkoun, p. 96-117. Paris: Albin Michel, 2006.
- Francisco (Adam), ***Martin Luther and Islam: A Study in Sixteenth-Century Polemics and Apologetics***, Leiden: Brill, 2007.
- Gay-Canton (Réjane), «Lorsque Muḥammad orne les autels. Sur l´utilisation de la théologie islamique dans la controverse autour de l´Immaculée Conception de la fin du XIVe au début du XVIIIe siècle», Revue des Sciences Philosophiques et Théologiques, 2010.

- Houdas (Octave) & William (Marçais), ***Les traditions islamiques***, Vol. 3 (4 vols), Paris: J. Maisonneuve, 1977.
- Napoléon Ier, ***Campagnes d'Égypte et de Syrie***, Paris: Imprimerie Nationale, 1998.
- Küng (Hans), ***Christianity and World Religions: Dialogue with Islam***, Vol. 3, in ***Muslims in Dialogue: The Evolution of A Dialogue***, édité par Leonard Swidler, p. 161-175, Lewiston: The Edwin Mellen Press, 1992.
- Pastoret (Emmanuel), ***Zoroastre, Confucius et Mahomet, comparés comme sectaires, législateurs, et moralistes; avec le tableau de leurs dogmes, de leurs lois et de leur morale***, Paris: Buisson, 1787.
- Schwartz (Stuart), ***All can be saved: religious tolerance and salvation in the Iberian Atlantic world***, New Haven: Yale University Press, 2008.
- Tolan (John), «"Tra il diavolo di Rustico e il ninferno d'Alibech"‖: Muslims and Jews in Boccaccio's Decameron», in ***Images of Otherness in Medieval and Early Modern Times: Exclusion, Inclusion and Assimilation***, édité par Anaja Eisenbeiß & Lieselotte Saurma-Jeltsch, p. 133-141, Berlin & Munich: Deutscher Kunstverlag, 2012.
- Tolan (John), «European Accounts of Muhammad's Life», in ***Cambridge Companion to Muhammad***, édité par Jonathan Brockopp, p. 226-250. Cambridge: Cambridge University Press, 2010.
- Tolan (John), «Les récits de vie de Mahomet» in ***L'Histoire de l'islam et des musulmans en France***, édité par Mohammed Arkoun, p. 156-177, Paris: Albin Michel, 2006.
- Tolan (John), ***Les Sarrasins: l'Islam dans l'imagination européenne au moyen âge***. Paris: Aubier, 2003.
- Vatican, «Lumen Gentium», 1962,
- http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vatii_const_19641121_lumen-gentium_fr.html.
- Vatican, «Nostra Aetate», 28 Octobre 1965,
- http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vatii_decl_19651028_nostra-aetate_fr.html.
- Waardenburg (Jean Jacques), ***Islam dans le miroir de l'Occident; comment quelques orientalistes occidentaux se sont penchés sur l'Islam et se sont formé une image de cette religion***, Paris: Mouton, 1969.
- Watt (W. Montgomery), ***Muslim-Christian Encounters: Perceptions and Misperceptions***, London: Routeledge, 1991.
- Wilders (Geert), *Geert Wilders Weblog*, 30 March 2011.
- http://www.geertwilders.nl/index.php/component/content/article/80-geertwildersnl/1741-timeto-unmask-muhammad-by-geert-wilders.

نبذة عن الكاتب

جون تولان: مولود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، درس الأدب الكلاسيكي في جامعة يال (Yale)، ثمّ درّس التاريخ في عدّة جامعات أمريكيّة وأوروبيّة وعربيّة، وهو حاليّاً أستاذ التاريخ في جامعة نانت (Nantes) الفرنسيّة ومدير برنامج بحثي في المجلس الأوروبي للبحوث، مختصّ في تاريخ عالم البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى وتاريخ العلاقات الثقافيّة والدينيّة بين العالمين العربي واللاتيني، وله العديد من الكتب، أهمّها:

- Petrus Alfonsi and his Medieval Readers, Gainesville: University Press of Florida, 1993.
- Les Relations entre les pays d'Islam et le monde latin du milieu du Xème siècle au milieu du XIIIème siècle, Paris: Bréal, 2000.
- Les Sarrasins: l'Islam dans l'imaginaire européen au Moyen Âge, Paris: Aubier, 2003.
- Le Saint chez le Sultan: la rencontre de François d'Assise et de l'islam. Huit siècles d'interprétations, Paris: Seuil, 2007.
- Sons of Ishmael: Muslims through European Eyes in the Middle Ages, Gainesville: University Press of Florida, 2008.
- L'Europe latine et le monde arabe au Moyen Age: Cultures en conflit et en convergence, Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2009.
- Avec Henry Laurens et Gilles Veinstein, L'Europe et l'islam: quinze siècles d'histoire, Paris: Éditions Odile Jacob, 2009.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017